

عناية الإسلام الراشدة بالطفولة

الدكتور محمد عبد الهادي
جامعة محمد خيضر، بسكرة

وليس ينفعه من بعده أدب
ولا تلين - لو كينته - الخشب

قد ينفع الأدب الأولاد في صغر
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت

التنشئة الاجتماعية السليمة بما يخدم مستقبل الأمة، مسؤولية مشتركة بين جميع مؤسسات المجتمع وأفراده، وذلك من أجل خلق جيل متعلم مثقف يتسم بروح الانتماء والعطاء.

تعتبر الطفولة من أهم المراحل في حياة الإنسان، وهي الأساس الذي يبنى عليه كل شيء، والطفل هو اللبنة الأساسية لأي مجتمع، وقد أثارت الطفولة حولها النقاش والجدال، بما تمثله من أهمية، وحساسية، ووزن اجتماعي. ولئن

يتناول هذا المقال تبيان المكانة العليا التي يتمتع بها الطفل في الشريعة الإسلامية، وإلزامية رعايته وتربيته تربية صالحة وسليمة، ويوضح المسؤولية الكبيرة الملقاة على الأسرة وخصوصا الوالدين، في إعداد أبنائهم إعدادا تربويا تعليميا منهجيا صحيحا، ويرز المقال أيضا مسؤولية الدولة ومؤسساتها في توفير كل ما يناسب الطفل على المستوى الصحي والتعليمي والاجتماعي، مؤكداً في النهاية أن تربية وتعليم الطفل وتنشئته

ونقف على هذه الحقيقة في وزارات التربية والتعليم العالي، الثقافة، الإعلام، الصحة، الشؤون الاجتماعية، الرياضة والداخلية، وهذه الأخيرة يمتد فيها التكامل إلى الجمعيات والمراكز الثقافية والمكتبات.

اهتم الإسلام بالطفل قبل تكوينه وبعده، وقد وردت آيات وأحاديث نبوية عن شروط اختيار الأم الصالحة وصفاتها، وقد حفظت نصوص الشريعة للطفل حقه الأساس في الحياة بكرامة وأمن وسلامة، وأعطته مكاناً هاماً داخل أسرته، ومجتمع، بدءاً بالحضانة، ومروراً بالتربية والإنفاق والتعليم، وانتهاء بإعداده للاندماج في حياة كريمة، وتبعاً لذلك ألزم الإسلام الأبوين والدولة الاهتمام بالطفولة، وعليه فإن تربيته تكون من باب الفرض والمسئولية التي يحاسب عليها الإنسان، فقال الرسول ﷺ: **كلكم راع وكلكم**

تضاربت تعاريف الطفولة بين الخبراء وأهل الاختصاص، فإنهم متفقون جميعاً على أنها الشخصية المحورية في واقع الأمم والحضارات. باعتبار أن الطفل مشروع استثماري للرقى بجميع نواحي الحياة، انطلاقاً من كونه أساس التسيير في المستقبل في شتى المجالات، وشخصية الطفل وبتميز استطاعت أن تكون محوراً أساسياً في معظم التخصصات، إن لم نقل إنها مركز اهتمام المجتمع بكل مؤسساته التعليمية، والإدارية، والصحية وسواها، ويتجلى ذلك أكثر في واقعنا الأكاديمي. تجد نفسك عند ولوجك إلى عالم الطفولة مهتماً بتخصصات مختلفة تفرض نفسها عليك، وأساس ذلك أن شخصية الطفل متعددة الجوانب، حيث نجد لها بين اهتمامات: علم المكتبات، الأدب العربي، الإعلام «تلفاز، إذاعة، صحافة»، علم الاجتماع، علم النفس، علوم التربية... الخ.

مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته...)). [صحيح البخاري].

إذ إن المكانة التي أولاها الإسلام للطفل لم يولها له «دين من الأديان حيث كرم الطفل ورأى أنه جوهرة نفيسة يجب العناية بها والمحافظة عليها، ولعل أول مظهر من مظاهر ذلك التكریم هو حقه في الحياة. كما قرر له الإسلام حقوقاً وواجبات، كالإنفاق عليه من قبل والديه والعناية بتربيته ورعايته، كما دعا النبي ﷺ إلى تأديب الأطفال وغرس الأخلاق الكريمة في نفوسهم، وتعويدهم التحلي بالصدق واحترام الإسلام».

ويعود اهتمام الإسلام بالطفولة إلى بداية الدعوة الإسلامية، إذ عني الإسلام بالطفولة، ووضع أول أساس لحقوقه ورعايته في التاريخ، وتبدأ هذه الحقوق

قبل أن يكون جنينا، إذ يحث الإسلام على انتقاء واختيار الزوجة الصالحة، ويضع لها صفات خاصة، لتكون أمًا مثالية للأطفال، تحسن رعايتهم وتربيتهم، ثم تأتي بعد ذلك حقوق الرضاعة والتعليم والتأديب والتربية، وحقوق الثقافة والتدريب على المهارات النافعة والمثمرة، للارتفاع بمستوى قدراته العقلية والجسمية وتنميتها.

وكان للفكر الإسلامي في مجال التربية دور كبير في تربية الطفل واحتياجاته والعناية به، وفق أسس سليمة سبقت ما توصل إليه علماء التربية وعلم النفس بقرون عديدة، فعناية الإسلام بالنشء تتوجه إلى تربيته وحسن تنشئته، «ذلك أنهم شباب المستقبل ورجال الغد، وهم امتداد الحاضر ودعاة المستقبل، وحملة الإسلام إلى البشرية، ومن حقهم على الأمة أن تؤمن لهم الرعاية الكاملة، والتوجيه السليم، القائم على أساس راسخ من الإيمان».

يتعلمه». وفي هذا الصدد نورد قولاً فحواه:

«ونظراً لما يؤديه التعلم بالقُدوة من أدوار مهمة ومتميزة في تعليم الطفل كثيراً من المهارات في الفترات المبكرة من الطفولة، فإن علماء الصحة النفسية والعلاج السلوكي ينصحون الوالدين بالانتباه لدورهما من هذه الناحية، فالوالدان -أرادا أم لم يريد- يرسمان بتصرفاتهما أمام الطفل نماذج من المهارات والسلوك التي يتعلم منها الطفل وتمتد هذه المهارات لتشمل كثيراً من الجوانب السلوكية بما فيها اللغة ورعاية النفس».

وبالإضافة إلى ذلك يعتبر الأسلوب الذي تعتمده الأسرة الأساس في تكوين شخصية الطفل»، وهذا الأسلوب يجب أن يستند إلى خلفية ثقافية مناسبة في أساليب التربية، وكذلك في أساليب التعامل مع الأبناء حسب حاجاتهم

وهنا نجد العديد من العلماء المسلمين ألفوا كتباً حول الطفل وتربيته وتعليمه وحقوقه، منهم إخوان الصفا، وأبو الحسن علي القاي، وابن مسكويه، وابن سينا وأبو حامد الغزالي، وابن عبد البر، وابن القيم الجوزية، وابن ظفر المغربي المكي، وابن عبد ربه، وابن سحنون، وابن خلدون، وجلال الدين السيوطي، وابن العديم الحلبي.

إن المسؤولية الأولى والعبء الأكبر في تربية الطفل وتعليمه يقعان على الأسرة، وأهم شيء في التربية قديماً وحديثاً هو «القُدوة» التي يمارسها الأبوان، وأفراد الأسرة أمام الأطفال، حيث إنّ القُدوة في نظر الإسلام هي من أعظم الوسائل التربوية تأثيراً، فالطفل حين يجد من أبويه ومربيه القُدوة الصالحة في كل شيء يتشرب مبادئ الخير، والتلميذ في المدرسة لا بد له من قُدوة يراها من كل معلم من معلميه، ليقنع حقاً بما

وينمّي قدراته، ومداركة، وإحساسه بالمسؤولية الأدبية والاجتماعية، حتى يصبح عضوا نافعا في المجتمع، ويجب أن يستهدف المسؤولون عن تعليم الطفل وإرشاده تحقيق أفضل المصالح للطفل، وتقع المسؤولية بادئ ذي بدء كاملة على أبويه، ويجب أن تتاح للطفل الفرص الكاملة للعب والتسلية اللذين يجب أن يوجها إلى نفس الأغراض التي يحققها التعليم.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الأمم المتحدة قد أعلنت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن للطفولة الحق في رعاية ومساعدة خاصتين، واقتناعا منها بأن الأسرة باعتبارها الوحدة الأساسية للمجتمع، والبيئة الطبيعية لنمو جميع أفرادها ورفاهيتهم وبخاصة الأطفال، ينبغي أن تولى الحماية والمساعدة اللازمين، لتمكن من الاضطلاع الكامل بمسؤولياتها داخل المجتمع.

المتعددة ومراحل نموهم وسمات كل مرحلة من هذه المراحل، حتى يتمكن من خلال هذه الخلفية الثقافية تحقيق قدر كاف من التوافق النفسي للأبناء، فالأسوة الحسنة والقذوة الصالحة في البيت تعد خير وسيلة لتربية الأبناء التربية القوية.

وصدق أبو العلاء المعري حين قال:

وينشأ ناشئ الفتيان منا

على ما كان عوده أبوه.

إن متطلبات رعاية الطفل والاهتمام به وبتربيته واكتشاف رغباته وميوله «يجب أن تركز على أسس تربية هادفة مدروسة، صالحة تجعله يعتاد على فعل الصواب وتجنب الخطأ».

والدول ومؤسساتها تتحملان توفير تعليم مجاني وإجباري على الأقل في المراحل الأولى ويجب أن يعطى -أي الطفل- تعليما يرقى بثقافته العامة، ويساعده على أساس من الفرص المتكافئة،

أن تكون مساندة لقوانين الطبيعة، تحترم ميول الطفل إلى تنمية شخصيته من جميع الجوانب».

ونلفت الانتباه إلى أن الحرية المقصودة ليس معناها الانفلات والتمرد ذلك أن معظم دساتير الدول والمنظمات العالمية أفردت بنوداً للطفل وحقوقه وتعليمه وبينها الدستور الجزائري إذ يجازي القانون الآباء على قيام بواجب تربية أبنائهم ورعايتهم، كما يجازي الأبناء بواجب الإحسان إلى آبائهم ومساعدتهم».

وحيث إن للقانون دوراً فعالاً في تأكيد وحماية الطفل فإنه يصبح من الضروري تنمية معرفة الآباء القائمة على تطبيق وتنفيذ القوانين بالضمانات القانونية التي يوفرها النظام القانوني في بلد ما، ومدى فعاليتها في المحافظة على المركز القانوني للطفل في المجتمع، لأنها تشكل في الواقع تحدياً صريحاً للنظم المعمول بها في

لذلك ينبغي إعداد الطفل إعداداً كاملاً ليحيا حياة فردية في المجتمع، وتربيته بروح المثل العليا في ميثاق الأمم المتحدة، وخصوصاً بروح التسامح والكرامة والتسامح والحرية والمساواة والإخاء».

إن المسؤولية في هذا المجال هي مسؤولية مشتركة متكاملة بين الأسرة وبين الدولة وأجهزتها في رعاية الطفل، وليست إشكالية تخضع لمبررات واهية على حساب نشر ثقافة التسطيح، واللامبالاة، ويجب أن تولى العناية الكبرى للمراحل الأولى للطفولة، وصدق العرب حين قالوا: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

وعلى المربين أن يطوروا تفكيرهم التربوي وآلياته لمواكبة العصر، وأن لا يحصرُوا التربية ضمن إطار تقليدي بحت، معزول عن حالة التقدم في عصرنا، مع احترام تطور تفكير الأطفال وميولهم ورغباتهم؛ ذلك أن التربية يجب

الاجتماعية هي المساهمات التي تقوم بها مؤسسات المجتمع بدءاً من الأسرة والمدرسة في تربية الأفراد، وتنشئتهم طبقاً لشرعة الإسلام، وتعليماته ليتحقق لهؤلاء الأفراد نمو صالح، وتكيف مع المجتمع وأهدافه ومتطلباته في إيجاد المواطن الصالح».

يؤكد «مفتاح محمد ذياب» على ضرورة العمل الجماعي باتجاه الطفل والرقى به فكرياً ومعرفياً بقوله: «إنّ المجتمع العربي شعباً وهيئات ومؤسسات رسمية وشعبية يجب أن يولى الاهتمام الفكري للطفولة اهتماماً كبيراً، إذا ما آمن بأنّ طفل اليوم هو رجل الغد، وأنّ الطفولة هي صناعة المستقبل (...)» يقدم لها أكثر الألوان الثقافية التي يمكن أن تُساهم في صنع الإنسان النموذجي السليم من كل النواحي الفكرية والعقلية والعاطفية والجسمية حتى يكون هذا الإنسان مصدراً للابتكار والإبداع».

المجتمع، إضافة إلى أنّها تعد حافزاً لتغيير كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية «وقديماً سئل سقراط الحكيم: «متى نبدأ بتربية الطفل؟ فأجاب: «قبل أن يولد بمائة عام». فعاد السائلون الأولون فسألوا: وكيف يكون ذلك؟ فقال لهم: «يجب أن نربي أبويه من قبل وأجداده الأربعة».

إن تربية الطفل والاهتمام به من منظور إسلامي لا يمكن أن يقوم بها طرف واحد، بل مجموعة من الأطراف مكونة من مؤسسات مختلفة، كل يؤدي دوره المنوط به «فالتنشئة الاجتماعية الإسلامية تستعين بوسائل وعوامل متعددة منها الأسرة والتعليم ومؤسساته المختلفة وجماعة اللعب – الرفاق والأصدقاء وكذلك مؤسسات المجتمع مثل المسجد والنادي الرياضي والاجتماعي.

إلى ذلك، نستطيع القول بأنّ التنشئة

تقدمها الأسرة لها دور في نمو الأطفال من خلال النشاط العقلي المستمر في البيئة، وفي نموها عاطفياً وانفعالياً من خلال تنمية استجاباتهم للمؤثرات المختلفة، وإكسابهم الميول، والاتجاهات وطرق التعبير عن انفعالاتهم.

وتشير الاتجاهات الحديثة المتعلقة بإشباع حاجات الطفولة المختلفة إلى التربية الدينية في هذه المرحلة «حيث تؤكد الدراسات النفسية الحديثة إلى ضرورة غرس القيم الدينية في نفوس الأطفال الصغار حتى يتكون لديهم الإيمان والأمل والحب والخير اللازم لنمو شخصيتهم.

ويتم غرس هذه القيم لدى الأطفال من خلال المحاكاة ومن خلال تقبلهم لقيم البيت أكثر من تقبلهم إياها من خلال المفاهيم المجردة التي تمدهم بها كتب التربية الدينية. وهذا لا يعني إغفال أهمية كتب التربية الدينية أو التركيز

وعليه فإنه يجب أن تتوافق التنشئة الاجتماعية للطفل في العمليات التنموية التي تهدف إلى إحداث تغيرات جذرية وإيجابية في البناء الاجتماعي ووظائفه، ففي أثناء عملية التغير وبعدها يهدف المجتمع إلى البحث عن أساليب جديدة للتنشئة الاجتماعية، حيث تتوافق مع التغيرات الحادثة في البناء الاجتماعي للمجتمع إعداد الأطفال من أجل حياة أفضل في المستقبل كما يتوقعه الوالدان اللذان يبحثان بدورهما عن أساليب أفضل لتنشئة أبنائهم، وتوجيههم الوجهة السليمة نحو المستقبل».

والإسلام يؤكد على الدور المستمر الذي ينبغي للأسرة أن تؤديه لتحملها المسؤولية الكاملة في تربية الطفل وتعليمه وإرشاده، باعتبارها أهم المؤسسات الاجتماعية، لما لها من دور متميز ومكانة خاصة من عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية» فالثقافة التي

وإمكانيّات كبيرة، وهذه الحاجات هي:

«الحاجة إلى المعرفة واكتساب مهارات الحياة اليومية والحاجة إلى اكتساب القيم الدينية والأخلاقية، والحاجة إلى الترفيه واللعب والحاجة إلى العمل وتقدير قيمته والحاجة إلى تنمية القدرات العقلية والحاجة إلى الحب والحنان والأمان والحاجة إلى الانتماء». و لا عجب من أن نشهد «ازدياد اهتمام المعنيين برعاية الطفل بما في ذلك الآباء والمختصون بدراسة الطفولة ازديادا لم تشهد له العصور الخالية مثيلا. و لا شك من أن مبلغ الاهتمام هذا يعزى إلى إدراك المعنيين لقيمة مرحلة الطفولة وإلى تقديرهم إياها، وذلك أن آثارها ستنعكس سلبا أو إيجابا على شخصية الطفل المنتظرة».

لأن الطفل يمثل الأمل المنشود للأمم من أجل الخروج من حالة التردّي إلى

على القدوة الصالحة في التنشئة الدينية الصحيحة».

ولحماية الطفل من الأفكار المنحرفة المتطرفة التي يدعي بعضهم أنها من صميم الإسلام تسعى التربية إلى التكفل بذلك لأن «التربية الإسلامية السليمة هي خير ما يكفل للطفل النشأة السليمة حتى يصل بمجتمعه إلى الأفضل».

ولقد أورد «الدكتور مالك إبراهيم الأحمد» مجموعة من الحاجات التي لا بد أن تتوفر للإنسان عموما وللطفل على وجه الخصوص، باعتباره في طي التكوين، وبحاجة إلى أسس متينة تحميه وتحصنه من التقلبات سواء الثقافية أو السياسية... الخ؛ والأهم حمايته من غزو ثقافي محدد يمارس بطرق شتى، حتى إنّ القائمين على الطفولة وحمايتها (البيت، المدرسة، المكتبة.. الخ) لا يستطيعون الوقوف في وجه ذلك الغزو بما يمتلك من وسائل

خاتمة:

يمكننا الخلوص إلى أن الإسلام كان سباقا في الاهتمام بالطفل ورعايته، لمعرفة بمكانة الطفل في تحديد مستقبل الأمة على جميع الأصعدة، و عليه وجب الاهتمام أكثر فأكثر بهذه الشريحة وحمايتها وتكوينها التكوين الأفضل، بما يضمن لها المستقبل الزاهر الواعد.

ملاحظة:

الموضوع موثق وله مراجع.

مستقبل واعد وزاهر وصدق الامام
«عبد الحميد بن باديس» رحمه الله في
قوله المشهور:

يا نشء أنت رجاؤنا

وبك الصّباح قد اقترب

